

النبوة - الوحي - المعجزة

للأستاذ عبد المنعم خلاف

- ٢ -

— — —

مقدمة من طول الفترة بين مقال الأول — في هذا الموضوع — ومقال هذا ؛ فإن أعمال الامتحان في المدارس وشواغل السفر من بغداد إلى القاهرة أمور لا يستقيم معها فكر ولا بسفر فيها خاطر .

كلما فكرت في صحت الطبيعة المطبق تجاه الإنسان ، وثبات السماء والأرض أمام حواسه ، وعدم اكتراث الأشياء له ، وعدم وجود نفرة ينحدر منها إلى أفق آخر غير هذه المناظر الهائلة الثابتة .. اعترتني رهبة من وضع الإنسان هذا الوضع المثلث عليه فيه كل شيء . وأقمتي الفكر بين المعجز والنسب كما يقول المثني :

ومن تفكر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين المعجز والتعب ولكنني أفرض في بعض الأحيان أن الإنسان استطاع أن يرقى أسباب السماء بسلم ، وأنه طار كالريح ، وانتقل كالبرق ، وصار الكون كله منزوياً بين عينيه . فهل يفيد ذلك شيئاً في حل شيء ؟ كلا ! فيما أتخيل ... لأن الذي ينتقل من متحف أعاجيب صغير إلى متحف أعاجيب كبير ، لا يزيد ذلك إلا دهشة ورغبة في معرفة الأسباب !

وهبوا الإنسان حلال كل شيء في الطبيعة وركبه ... فهل تذهب قدرته تلك من حيرته ودهشته في إدراك العلاقة بين فكره وبين الأشياء ، وفي إدراكه نفسه وقدرتها ؟ كلا ! فيما أتخيل ... فهو سوف لا يدرك من نفسه إلا أنه آلة خالقة تفعل الأعاجيب . فنحن مهما أدركنا ومهما فعلنا فسنظل حائرين في معرفة كيف ندرك وكيف تفعل ما تفعل ... ويدق وجود كل شيء بعد ذلك لنزاعاً مغلفاً كما هو !! ...

ومن هذا للدخول أدخل إلى بحث « المعجزة الحسية » ، التي هي أعظم عقبة يصطدم بها أكثر الباحثين المتشككين في طريقهم إلى الإيمان بالنبوة . لأنهم يرون في إيجادها خرقاً للناموس العام الذي ينتظم الطبيعة ، وخروجاً على سنن اطرادها ؛ ويرون أن الإيمان

بالنبوة لا يكون إلا بالإيمان أيضاً بهذا النوع من الأفعال المخارقة لسنة الطبيعة . فيقفون مترددين محججين عن الإيمان بالنبوة والوحي ، إذ يجدون في منطقة الإيمان بهما عقبة المعجزات الحسية . فيذهبون إلى تأويل النبوة والوحي بتخريجات لا تتفق مع الإيمان الصحيح ولا مع نصوص القرآن الصريحة ، ولا مع منطق النبي نفسه ؛ ومعنى النبوة التي أدركها هو في روحه وفكره ، وحدثنا عنها ، ووصفها لنا . فهم يحاولون أن يفهموا الوحي على أنه فيض ذاتي في النفس الإنسانية ، وحالة إلحاح من فكرة الصلاح والحق على قلوب بعض محبي الإصلاح من البشر بعد إدراك تام للاتجاه العام في الطبيعة . فيخيل إليهم حين يدركون ذلك أن إرادة رب الحياة معهم ومنطقه في أفواههم وعقولهم ؛ فيصدعون بالدعوة ، وليس هناك وراء هذا اتصال بينهم وبين الله ولا حديث ولا شيء . وأما الخوارق التي كانوا يجربونها فهي أعمال ناشئة من يقظتهم وإدراكهم علماً من الطبيعة لم يدركه غيرهم . فيستخدمون ذلك في إقناع الناس .

هذه هي خلاصة مقالة منكبرى النبوة في العصر الحديث . وقد ألححت في مقالتي الماضي في بيان النبوة كقانون من قوانين النشأة العقلية والروحية ، وأنها أشبه بالعلاقة بين الأبوة والبنوة في الترتيب والإرشاد ، والله يسر من المقبول أن تغطي الحياة الإنسانية من أول رجل إلى آخر رجل من غير سماع كلمة غير إنسانية مما وراء الطبيعة ، وإلا لزم أن تهدر قيمة الإنسان أمام نفسه لأنه لم يسمع حديثاً من الحياة يحدد له قيمته ومكانه ... أما المعجزات الحسية فلو لم يحدثنا عنها القرآن حديثه القاطع بوجودها لكان لنا معها موقف آخر . ولكن القرآن للمعجز الدائم يحدثنا عن ناقة خرجت من صخرة ، وعصا انقلبت حية ، وطير خرج من طين ، وعن كثير من الآيات بمحدث صريح لا يقبل تأويلاً ولا تحريجاً غير ما يحتمله لفظه . ولم يشر القرآن بأي إشارة إلى أن الأنبياء الذين جرت على أيديهم هذه الخوارق كانوا على علم بأسرار ما يفعلون ، بل بالعكس يحدثنا أن موسى خاف وفر وولى مدبراً حين رأى عصاه تنقلب إلى ثعبان مما يدل على أنه ما كان يدري بسر ما يجري أمامه .

إذاً فقد حبط قولهم إن تلك الخوارق ناشئة من إدراك النبي

سراً من الطبيعة لم يدركه غيره

وينبني أن نتذكر دائماً أن كل شيء في الطبيعة معجز وغير . وأن إضافة شيء إلى الطبيعة من أعمال الإيجاد والخلق في ظروف استثنائية تفسر الضرورة بإحداث حجة حسية دامنة فيها ، تلك الإضافة لا تريد عجباً ولا تستحق دهشة أكثر من غيرها من الموجود قبلها

وينبني أيضاً أن تمنع خيالنا من تصور الله تعالى خاضعاً لطرق صناعتنا . . . فهو لا يحتاج إلى مخاير ومعايير ومنافع وآلات ومعامل حتى يخرج شيئاً وإنما المسألة بالنسبة إليه بسيطة هيئة . . وقد فهم إبراهيم عليه السلام حين قال له : « رب أرني كيف تحيي الموتى » إذ أنه ظن أن هناك كيفية وأسلوباً محسوساً لإيجاد الله للأشياء فقال له الله : « أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليظهرن قلبي . قال : نخذ أربعة من الطير فصرهن إليك (أى اذبحهن) ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم اذعنهن يائنينك سمياً » فلم ير إبراهيم من كيفية الخلق أكثر من هذا . وهو هو نفسه الأسلوب الذي نراه كل يوم وكل ساعة في وجود الأشياء من نبات وحيوان ، وفي تجدد المادة والقوة والطاقة

فالأموار والأشياء من أولها إلى آخرها معجزات وآيات معجرات . ولو خلقناها بأيدينا لم يذهب ما بنا من حيرة ودهشة كما قدمت في أول هذا المقال

أقول هذا وأطيل فيه لأين للذين تصدمهم المعجزات الحسية المنسوبة إلى الرسل السابقين قبل محمد وتصدمهم عن الإيمان بالنبوة بمسناها عند جمهور الناس أن أمرها أحسن في التقدير مما يتصورون وأنها لا تستلزم هذه الحيرة والدهشة لأن الله يفعل مثلها في كل دقيقة ملايين الملايين

ثم إن الله تعالى لم يضع قوانين الخلق ليقيد بها كالأغلال والأصفاة فلا مانع أن يحطمها في جزئياتها التي يدركها الناس عن قرب في ظروف استثنائية حتى لا تنوهم — كما توهم بعض فلاسفة اليونان — أن الله لا يقدر على مخالفة سنن الطبيعة

ما قدمناه من الحديث يدور حول علاقة المعجزة بالطبيعة وسنننا المطردة وحول علاقتها بالله موجد الطبيعة . ويبقى حديث

حول علاقتها بالناس وعقولهم وآثارها في الدعوة

هل هناك ضرورة قاهرة على إحداث المعجزة ؟

للجواب على هذا ينبني أن نستحضر صور المجتمع الإنساني في عصوره الأولى البدائية الجاهلة المحدودة الإدراك الواقعة عند المحسوسات الفارقة في الجهالات الموزعة عقليتها بين السحر والخرقة . كل أمة في عزلة عن الأخرى لا ترى إلا قطعة محدودة من الأرض وأفقاً ضيقاً من السماء . . . ترى ظواهر الطبيعة ولا تستطيع لها تمليلاً ، تأكلها الفواجع وتحصد الأوباء ويستبد بها السكينة والرؤساء وتسير كقطعان ساعة هائمة في بيداء الحياة ليس لها علوم وآداب إلا ما هو في نطاق ضرورة العيش والارتفاق ثم يتأجج أحد هذه المجتمعات رجل يحاول أن يحطم كل وثن معبود ويذهب كل شر ويحمل على كل خير ويخلع أمته من ماض وتاريخ وسيرة آباء ويقول — وهنا الهول والدهشة — أما رسول من الله رب السماء والأرض اختصني الله من بينكم وألقى على روحي من أمره وكلني ! نعم كلني ! وهذا الرجل في الغالبية المطلقة من الأحيان يكون فقيراً لا مال ولا جاه له مما يفتن العامة ويدعو إلى احترام الخاصة

فمن ذا عساه أن يؤمن مع هذا الرجل من مثل هذا المجتمع المنحط الخاضع لمنطق الطفولة ، الذي لم يدرك الحق بنفسه ؟

أظن أنه لا جدال في أن من يستجيب سريعاً لهذا الرجل هم العدد الأقل ممن يلبي كلمة الحق لأول سماعه بها ، وهؤلاء حتى في زماننا زمن العلم والحرية والديمقراطية لا يكادون يبلغون عدداً تصلح معه شئون الأرض ويستقر الممران ويتحقق نحو حركة الفكر والخلق . فلا بد لصالح الأرض من صلاح جماهير المال والزراع وهؤلاء هم القطيع الذي يملأ بقاع الأرض ولا يستطيع المصلحون أن يحققوا مثلهم العليا إلا إذا تسلطوا عليه وملكوا قيادته ، وهؤلاء هم موضع عناية الله ووصاياه لأنهم لا يستطيعون أن يضرعوا للإدراك كاله وجلاله إذ أنهم مشغولون بالسعى إلى الرزق والضرورات المادية ويخيل إلى أن الله تعالى لاحظ في وضع النباتات الأولى منطقتهم ووجدانهم أكثر من غيرهم من الخواص لأنهم هم جمهور الإنسانية لا نستقيم أمورهم إلا بإرضائهم وإصلاحهم أما الفلاسفة والحكام فقليلون كما قدمنا . ولو راعى الله منطقتهم

الحق في الحياة وهو الإيمان به وأكبر الباطل فيها وهو الكفر به
فتيهم؟ وما هي غايته من خلقنا إذا؟ فلنأمرى الإدراك أن يطلبوا
ذلك ممن يتحدث باسمه نهالى حتى تقوم الحجة الحسية أمامهم
فبدر المنعم مهوف (البقية في العدد القادم)

المعقد وإدراكهم للتشعب فأرسل الرسائل بأسلوبهم وحدهم
بغات كتب الدين ككتبهم إذا ما استجاب للإيمان غيرهم وهم
في جسم الإنسانية كنسبة شجرة في جسم فيل
فلا بد أن نفهم هذا لنفهم أنه كان لا بد من وسيلة أخرى

غير وسيلة المنطق والعقل لإخضاع جماهير الناس
في تلك الأزمان التي كانت أغلب علومها تدور حول
البحث في قلب أشياء الطبيعة كقلب الرصاص
إلى ذهب وجول علوم التخيل كالسحر والسيما
وكيفية شفاء الرض بالتأمم والتعاويد وتحضير الجن
والاستهواء وراء القوى الخفية والتجارب على
ترويق الأنعام وإنطاقها وخلع معاني الحياة
وحركتها عليها إسماناً من السكينة في بسط
سلطانهم وسمياً من المامة وراء غيبوبة الأحلام
وبدوات الأماني والأوهام

ولا تزال بقايا كبيرة من السحر والثنوية
راسبة في أذهان الجماهير في عصرنا هذا
« فميدات » كثير من الدجالين والشمودين
أحفل بأثرين من عيادات كثير من الأطباء
الذين يمتدنون على العلم والاختبار، وقبور كثير
من المشايخ تقصد للاستشارة والاستخارة أكثر مما
تقصد مجالس العقلاء المجريين الذين يملطون الرأي
والمشورة التي لا تخطئ. فكيف يهمل الله هذه
الزمرات الطفلية في نفوس أكثر القطيع الإنساني
من غير أن يحملهم على الإيمان به من طريق الحس
وإقامة الحجة الدامغة — في رأيهم — حسب
ما يقترحون؟ وإذا علمنا أن الغاية من المعجزة
غاية عظيمة بل أعظم غايات الحياة وهي حمل كثير
من الناس على الإيمان بالله وإتقادهم مما يهدر
كرامتهم ويسفل بهم إلى أقل من درجة البهائم
وهو السجود لعنم والياذبه وبيع الحرية الفكرية
والشخصية... إذا علمنا ذلك نبين لنا أن المعجزة
أمر محتم لتكدة الحس في سبيل إيقاظ الإنسان
وإذا لم يهتم رب الحياة بأمر الفصل بين أكبر

